٤

عصر ابن بطوطة

عصر الأولياء والصوفية

على طول رحلة ابن بطوطة نلاحظ اهتمامه الشديد بلقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزُّهَّاد وأصحاب الكرامات ، ويبلغ اهتمامه بهذا الأمر أن يتخلف عن الركب ، ويمضى لزيارة عابد زاهد منفرد بنفسه فى مكان بعيد ، ليسأله الدعاء والبركة . وهو يؤمن إيماناً شديداً بأولئك الأولياء ، ويعطينا الأدلة على صدق ولايتهم ، واستجابة الله - سبحانه وتعالى- لشفاعتهم ، وما يتوجهون به إليه من رجاء . وفى وقت من الأوقات نجد ابن بطوطة على وشك أن يترك الرحلة ، وينقطع لخدمة واحد من أولئك الأولياء ، ولكن حب الرحلة غلب عليه ، فترك الفكرة ومضى .

وهذه الناحية عند ابن بطوطة تعطينا جانباً مهمًّا من جوانب ملامح العصر الذى عاش فيه ، وهو القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، لأن هذا العصر فى عالم الإسلام كله كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وشيوخها .

الأسباب التاريخية لشيوع ظاهرة الأولياء

وهذه الظاهرة طبيعية ومنطقية من الناحية التاريخية والنفسية فى عالم الإسلام فى الشرق والغرب على السواء ؛ فقد ابتلى العالم الإسلامى كله خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنكبات متوالية يرجع السبب فى معظمها إلى تدهور نظم الحكم وفسادها وضياع هيبتها ويأس الناس منها؛

فقد نزلت به جائحة الصليبيات ، وتحول العدوان الصليبى فى الأندلس وبلاد الشام من غارات وغزوات إلى احتلال أراضٍ وإدخالها فى الأرض النصرانية ، كما حدث فى الأندلس ، وإنشاء إمارات وممالك نصرانية على أرض إسلامية كما حدث فى الشام والعراق .

وإزاء ذلك العدوان المستمر الخطر وقفت دول الإسلام فى المغرب والمشرق عاجزة لا تستطيع القيام بشىء يحمى دار الإسلام ، ويصون أنفس المسلمين وأموالهم ؛ ففى الأندلس انتثرت الوحدة ، وضاعت دولة بنى أمية ، وتفرقت بلادها فيما يُعرف بممالك الطوائف ، وأخذت دول إسبانيا النصرانية تقتطع أراضى المسلمين جزءاً جزءاً دون أن تنهض لإيقافها إحدى هذه الدويلات .

وعندما سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون سنة ١٠٨٥م ضاع الأمل تماماً فى إنقاذ الأندلس على أيدى أمرائه ، لأن أولئك الأمراء لم يكتفوا بخيانة الوطن العربى الإسلامى ، بل وضع معظمهم نفسه فى حماية النصارى ، وأدوا إليهم الإتاوات مما أيأسَ الناس جميعاً من الدول والحكومات ، ولولا تدخُّل المرابطين فى أعقاب نكبة طليطلة لضاعت بقية الأندلس قبل نهاية القرن الخامس الهجرى .

وأما فى الشرق فقد ضاع الحزم جملة ، ووقف السلاجقة المتأخرون أمام العدوان الصليبى موقف العاجز ، وهبط أمر الخلافة العباسية حتى لم يعد لها فى العالم السياسى أى وزن !. أما الفاطميون فلم يدركوا حقيقة الغزو الصليبى إلا فى وقت متأخر ، وعندما استولى الصليبيون على عسقلان آخر معاقلهم فى الشام خرجوا من ميدان الصراع الصليبى جملة ، ودخلت دولتهم دور الاحتضار الأخير .

فى هذه الظروف أحست أمة الإسلام كلها أنها تقف عزلاء مكشوفة أمام أعداء لا يرحمون ، فاتجهت القلوب والنفوس إلى الله سبحانه وتعالى

تستلهمه القوة على مواجهة هذه الشدائد ، وتسأله الغوث للإسلام وأهله ، وتتلفت العيون والقلوب نحو طوائف الصوفية وشيوخهم والزُّهَّاد والعُبَّاد ومن نسمِّيهم بالأولياء ؛ أى : أولياء الله .

ولقد كانت هذه الطوائف موجودة منذ زمن طويل ، ولكن ظروف اليأس الشامل زادتهم أهمية فظهروا فى المجتمع وكثرت أعدادهم وتنوعت أشكالهم ، وأصبحوا يمثلون قوة روحية كبيرة أفاد منها الناس كثيراً . ونحن فى العادة نقول:

« إذا عَجَزَ الطبيبُ ظَهَرَ الوَلِيُّ » .

فى ذلك العصر - وهو القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى - نجد لكل مدينة عدداً من الأولياء يحتلون مراكز روحية ، ولهم سلطان معترف به حتى لتستطيع أن تقول إنهم كانوا أصحاب وظائف رسمية ، يعترف بها الناس ، بل يعترف بها أصحاب السلطان . والناس يرون أن هؤلاء الأولياء هم السلاطين بالفعل ، لأن دعوتهم - فيما يحسب الناس - مستجابة من الله سبحانه ، وما زلنا نسمِّى فى مصر مساجد بعضهم مساجد سلاطين ، فنقول : مسجد السلطان الحنفى ومسجد السلطان أبى العلا . وكان لهم ترتيب محكم، فمنهم الأبدال ، وهم اثنا عشر وليًّا كبيراً منتشرون فى نواحى العالم الإسلامى، وكلما توفى منهم واحد استبدل الله سبحانه به غيره، ولهذا فهم الأبدال ، وسلطانهم واسع وجاههم عظيم ، وهم على اتصال مباشر بالخضر عليه السلام ، فهو العَبْدُ الصالح الخالد . ويلى الأبدال الأقطاب ثم الأولياء ، وهكذا وَفْقَ نظامٍ مقرر تجده مفصَّلاً فى كتب طبقات الصوفية .

ولكن أحداً لا يصور لنا هؤلاء القوم ودورهم السياسى والاجتماعى العظيم مثل ابن بطوطة ؛ فهذا الرجل مشغوف بهم لا يكاد يمر بواحد منهم إلا زاره ، وهو يفعل ذلك فى حرص شديد كأنه يقوم بواجب دينى ،

وهم يتحدثون إليه عن سلطان حقيقى يملكونه ، وبعضهم يعطيه توصيات لكى يبلغها زملاءهم فى أقطار نائية ؛ فقد لقى قطباً مصريًّا فى دمنهور من بلاد مصر ، فأعطاه توصية إلى صاحب له فى الهند وآخر فى الصين ! وابن بطوطة يؤمن بما يقولون له إيماناً لا يرقى إليه الشك ، وهو لا يزال يحدثنا عن أفضالهم عليه ، وكيف كانت دعواتهم من أسباب نجاته من المهالك أكثر من مرة ؟ ولن أعطى هنا أمثلة ، لأننا سنصادفها فى الطريق ، وسنلمُّ بما كان بينه وبين أولئك الناس فى كل بلد زاره .

عصر ابن بطوطة: عصر انتعاش سياسى ورخاء عمرانى

وقد عاش ابن بطوطة وقام برحلاته فى عصر تراخت فيه الأخطار على أمة الإسلام ، فقد انكسرت موجة الصليبيات فى المشرق بعد العمل العظيم الذى قام به رجال اليقظة الدينية القومية فى العراق والشام ومصر ، تلك اليقظة التى بلغت ذروتها أيام صلاح الدين ، ثم جاء المماليك فأكملوا عمل صلاح الدين ، واطمأن المشرق الإسلامى بعض الشىء . فمصر والشام اللتان عرفهما هذا الرجل كانتا فى عصر سلاطين المماليك البحرية من أيام ركن الدين بيبرس الجاشنكير ثم قلاوون ثم أولاده وحفدته ، وهذا هو العصر الذهبى للمماليك، ولهذا فإننا نجد ابن بطوطة يتحدث عن رخاء البلاد وهدوء أحوالها ويعطينا صورة مشرقة لبلاد مصر والشام .

وإذا كان المسلمون قد خسروا حتى هذا العصر معظم الأندلس ، فلم تبقَ منه إلا مملكة غرناطة ، فقد عوَّض الإسلام هذه الخسارة بالتقدم الكبير الذى حققه فى آسيا الصغرى على يد إمارات الغزاة من سلاجقة الروم ثم طلائع التقدم العثمانى فى بلاد الدولة البيزنطية . ولقد زار ابن بطوطة هذه الإمارات، ورأى من قوة رجالها وإيمانهم بالإسلام ما يشرح صدر المسلم ويعوضه الكثير من الألم الذى يثقل عليه عندما يذكر الأندلس وما كان يجرى فيها .

كذلك كان الإسلام يتقدم حثيثاً فى الهند وشرقىّ آسيا وجنوبيِّها ؛ أى أن الرجل جَالَ فى عالم الإسلام فى عصر إشراق وأمل ، وفى القرن الذى تَلَا

رحلاته - وهو القرن الخامس عشر - يدخل الإسلام فى عصر زاهر من القوة، عصر الدول العظمى الإسلامية الأخيرة : سلطنة مغول الهند ، ثم أواخر النوريين ، وطلائع الصفويين فى إيران ، ثم سلطنة مصر والشام المملوكية ، وطلائع الأتراك العثمانيين ، ثم يلى ذلك غرباً أواخر الحفصيين ثم أمراء بنى زيَّان فى تلمسان ، وتنتهى غرباً بدولة آل مَرِين فى المغرب الأقصى .

هذه كلها كانت دولاً كبيرة قوية ، وبعضها كان تمهيداً لدول أعظم منها كما نرى فى إيران حيث حلَّ الصفويون محلَّ بقايا النوريين والإيلخانات ، وفى آسيا الصغرى والبلقان حيث قامت سلطنة آل عثمان ، وسلاطين الحفصيين فى إفريقية وجزء من المغرب الأوسط ، ثم سلاطين الشرفاء السعديين الذين حلُّوا محلَّ بنى مَرِين وبنى وطَّاس وبنى زيَّان .

كان العالم الإسلامى أيام ابن بطوطة - إذن - عالماً آخذاً بأسباب القوة، سائراً فى طريق الصعود ، ولكن خلف الواجهة الضخمة الخادعة كان يكمن الداء ، بل الأدواء؛ فإن البناء الإدارى والسياسى لدول الإسلام فى العصور الوسطى المتأخرة كان قد تآكل وفَسَدت نظمه وقواعده ، وتحولت الدول - فى حقيقة الأمر - إلى استبداديات طاغية ، لا هَمَّ لها إلا جمع الأموال من الناس وإنفاقها على جندها ، إلا شيئاً يسيراً كانت تنفقه فى مصالح البلاد والعباد .

وسيتجلى ذلك بكل وضوح فى انهيار الدولة المملوكية لأول صدمة جادة من الأتراك العثمانيين ، وفى انهيار الدولة الحفصية أمام هجمات الإسبان ، ثم انهيار دولة بنى وطَّاس تحت وطأة الهجوم البرتغالى الذى لم يوقفه إلا مجىء الشرفاء السعديين .

ولكن ابن بطوطة - على أى حال - طاف بنواحى عالم إسلامى مستقر الأحوال قائم النظم ، وإذا كانت الأُطُرُ السياسية قد تدهورت فإن الأُطُرَ

الاجتماعية والأخلاقية ما زالت قائمة . ومن خلال أحاديث ابن بطوطة لا نرى دولاً عظيمة بالمعنى الصحيح، ولا نظماً سياسية سليمة جديرة بالتقدير ، ولا سلاطين أو أمراء عظاماً يستحبُّ الإنسان الوقوفَ عندهم ، وَلَكِنَّا نَلْقَى نظاماً اجتماعيًّا وأخلاقيًّا سلياً ، ونطوف معه فى بلاد جماعة إسلامية آمنة محافظة على أطرها وقواعدها وأخلاقياتها .

وهذا هو الذى يضفى على هذه الرحلة متعةً وجمالاً ، ويجعل قراءتها راحةً للنفس والقلب. إنها رحلة فى عالم الإسلام الآخر ، عالم الأمة الإسلامية المستقرة الآمنة المطمئنة الفيَّاضة بالخير .

ولم أجد فيما قرأت من كتب التراث عندنا ما يصور ترابط أمة الإسلام واستقرار قواعدها ؛ كما وجدت عند ابن بطوطة ، فبينما نجد الكتب الأخرى تحدثنا عن الحروب والصراعات والغلوات والمجاعات أو تصرفنا عن عالم الواقع صرفاً تامًّا نجد ابن بطوطة يعرض لنا صورة عالم إسلامى مستقر آمن . والسبب فى ذلك أن الرجل قد قام بهذه الرحلة فى عالم أمة الإسلام الواسع دون أن يتأثر كثيراً بما كان يجرى بين الرؤساء فى عصره من حروب ؛ لأن أمة الإسلام كانت قد أخرجت نفسها من نزاعات السياسة داخل نطاقها ، وعاشت بعيداً عن منازعات الرؤساء ، آمنةً فى ظل العقيدة الواحدة ، عقيدةِ التوحيد والسلام .

* * *